# الدبلوماسية السوفيتية في الحجاز
# الانطلاقة الأولى إلى الجزيرة العربية
# ١٩٢٣-١٩٢٦

د. فيتالي ناؤ ومكين

المركز الروسي للدراسات الإستراتيجية والدولية. موسكو

ترجمة : د. ارسين توروس

بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧م مباشرة أدرجت الحكومة البلشفية في روسيا التيار «الإسلامي» ضمن الأولويات الأساسية لسياستها الخارجية التي كانت في طور صياغتها وواقعة في ظل تأثير قوي للمفاهيم والأحكام الايديولوجية في البداية. وفي السنوات الأولى لقيام روسيا السوفيتية التي كانت تتعرض للتدخل الأجنبي والحرب الأهلية، لم يتجاوز نشاطها في الشرق أساساً اطار نداءات الدعاية والاتصالات العرضية، وفي المقام الأول مع شخصيات الحركات التحررية. وكان العمل التثقيفي في «الجماهير التي كانت تعاني من الاستغلال في الشرق»، من أجل الثورة ضد المنبر الاستعماري، والظلم الاجتماعي ونشر أفكار التحرر الثورية في صفوفها هدفاً رئيسًا لنشاط السياسة الخارجية لروسيا في هذا المسار. وتجلى هذا الأمر بوضوح في النداء «إلى جميع العمّال المسلمين في روسيا والشرق» الصادر في

٢٠ ديسمبر ١٩١٧م الذي وقعه لينين وستالين، وفي قرارات الكومنترن الخاصة بقضية المستعمرات.

وفي عام ١٩٢١م تسنى لروسيا السوفيتية عقد معاهدة أسس العلاقات المتكافئة مع إيران (٢٦ فبراير) ومعاهدة الصداقة مع أفغانستان (٢٨ فبراير) ومعاهدة الصداقة والأخوة مع تركيا (١٦ مارس)، الأمر الذي كان انتصاراً ديبلوماسياً باهراً لها.

وضعت روسيا نصب عينيها توسع نطاق اتصالاتها الدولية في الشرق والانطلاق إلى العالم العربي حيث كان تنامي المشاعر القومية يتملك سكانها عقب هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى.

وفي سياق عقد مؤتمر لوزان عامي ١٩٢٢-١٩٢٣م أنشأ الوفد الروسي اتصالات مع بعض المندوبين العرب بما فيهم وفد الحجاز. وبالنيابة عن ملك الحجاز الشريف الحسين بن علي، طرح ممثله ناجي الأصيل أمام غيورغي تشيشيرين مفوض الشعب للشؤون الخارجية لروسيا (وزير الخارجية) قضية إقامة علاقات ديبلوماسية بين البلدين، وبدوره درس غيورغي تشيشيرين بناءً على تكليف من مفوضية الشعب للشؤون الخارجية (وزارة الخارجية) التقارير القنصلية الواردة من جدة في الفترة بين عامي ١٨٩٠ -١٩١٤ م وغيرها من الوثائق التي أعلن استناداً إليها أنه على علم بوجود حكام آخرين في الجزيرة العربية وأمثالهم الإدريسي وابن سعود اللذان لايعترفان بسلطة الحسين فحسب بل يعتبرانه عدوهما أيضاً. وفي الوقت نفسه اقترح غيورغي تشيشيرين على الحسين تبادل المندوبين وذلك بفتح قنصلية روسية في جدة.

في ديسمبر ١٩٢٣ م كتب غيورغي تشيشيرين كتاباً إلى ستالين أمين اللجنة المركزية للحرب الشيوعي الروسي يقول فية: «لقد سبق أن اتخذ المكتب السياسي عندما كنت في لوزان قراراً بشأن ضرورة إقامة العلاقات مع الحجاز من أجل أن تقع ممثليتنا - ولو القنصلية - قرب مكة التى تعد مركز التجمع الفكري للعالم

الإسلامي. إن المباحثات التي بدأ في إجرائها الرفيق فاتسلاف يوردانسكي قد انقطعت منذ سفره الثاني إلى لوزان. والآن تحدث الرفيق يوردانسكي عن ذلك مع ممثل الحجاز في روما الأمير حبيب لطف الله. أن ملك الحجاز متلهف لإقامة العلاقات معنا. ولكن نظراً لأنه يهاب انجلترا جداً فإنه لايمكنه اعتبار ممثلنا مفوضاً ويقترح علينا أن يكون لدينا قنصلية في الحجاز (وهذا ماتوقعنا منذ اللحظة الأولى)"(١). ثم يتلو ذلك: "تقترح الحجاز علينا قبول مبعوث. أن هيئة مفوضية الشعب للشؤون الخارجية اعتبرت في بادئ الأمر انتفاء التبادل هذا غير ملائم واشارت على الرفيق يوردانسكي بذلك.

والآن يوضح الرفيق يوردانسكي أن الأمير حبيب لطف الله يود جداً أن يسافر إلينا بصفة مفوض".

وحيث إن غيورغي تشيشيرين أعطى رأياً سلبياً عن الصفات الشخصية لهذا الأمير ("إني تبادلت الحديث معه طويلاً كي اقتنع بأنه غبي مطبق") فإنه يفضي إلى فكرة عن قبول هذا الترشيح ("لاشك في أن للتغلغل في مكة المكرمة أهمية بالغة لنا. لو أن الرفيق ابراهيموف بحث عن مفوض مسلم مناسب لنا سيحمل لقب القنصل، إلا أنه سيكون في الواقع مفوضاً، فمن شأن ذلك أن يزيد من وزننا ودورنا بشكل فائق للغاية ليس فقط في الجزيرة العربية وحدها".

في الثالث من ابريل ١٩٢٤م بعث غيورغي تشيشيرين بكتاب إلى قسطنطين يورينيف مفوض روسيا السوفيتية في روما جاء فيه: «أن القرار بشأن الدخول في علاقات ديبلوماسية مع الحجاز سبق أن اتخذته مؤسسة تتمتع بأكبر مكانة ونفوذ عندما كنت في لوزان، علماً بأن الرفيق فوروسكي كان قد كلف بصياغة ذلك مع ممثل حكومة الحجاز الذي يحمل وثيقة تفويض تخوله بهذا الحق. وقد تأجل تنفيذ هذا القرار لأن ممثل الحجاز لم يكن في روما في ذلك الحين. ونتيجة لوفاة الرفيق فوروفسكي تأجل تنفيذه فترة أطول. وقد نفذ يوردانسكي هذا القرار، حيث اتفق مع ممثل الحجاز حبيب لطف الله على أنه سيكون للاتحاد السوفيتي قنصلية عامة في

الحجاز، شأنه شأن كافة الدول الأخرى، أما الحجاز فسيكون لها مندوب مفوض في موسكو. وأعقب ذلك أن الرفيق يوردانسكي أبلغ شخصًا ما، لاأعرف من هو، بتعيين الرفيق كريم حكيموف من قبلنا قنصلاً عاماً في الحجاز" (٢).

يقول مفوض الشعب للشؤون الخارجية في معرض وصفه ملك الحجاز" بأنه من أكبر وأفضل أمراء العرب المستقلين سمعة والذي يتمتع بحق وراثة السلطة" إن الشريف حسين عدو لتركيا، ولكن "علاقتنا مع تركيا لاتلزمنا إطلاقاً بأن نتفادي العلاقات مع الدول المعادية لها". وفي الوقت نفسه من الواضح أن الزعماء السوفييت حين يقدمون على تطوير العلاقات مع الحجاز يأبون تدهور العلاقات مع تركيا أيضاً.

أن موقف الشريف حسين تجاه انجلترا، حسب وصف غيورغي تشيشرين هو موقف مزدوج و" أن الحجاز وجارها أيضاً بحاجة إلى ذلك إلى حد ما، إلا أنها تحاول أن تمارس سياسة مستقلة تخلو من عواقب مثيرة للقلق كلما أمكن ذلك" (٣). وهذا كان عاملاً آخر مؤثراً في طابع العلاقات المتبادلة بين روسيا والحجاز. وفي الوقت نفسه يبدي مفوض الشعب التحفظ من أن الدخول في العلاقات مع ملك الحجاز "لايعني الاستعداد للاعتراف بالشريف خليفة قط". ويرجع هذا الأمر إلى أن فكرة الخلافة التي حاول الانجليز إمرارها بهدف الحيلولة دون تحقيق مفهوم الدولة العربية الموحدة، بدت للقيادة السوفيتية بأنها فكرة معادية لمصالح روسيا وحلفائها المحتملين في الشرق. وكتب غيورغي تشيشيرين: "ليس لحكومتنا علاقات بالمنظمات الدينية وتتجاهل وجود مؤسسات مثل الخلافة أما مايتعلق بمؤسسات الإسلام في أراضي الاتحاد السوفيتي فإنها ستصر، على الأرجح، على الإلغاء التام لمؤسسة الخلافة وستحاول في هذا الصدد أن تؤثر على مسلمي البلدان الأخرى. وهذا في الواقع هو الأفضل بالنسبة لنا" (٤)

بمبادرة من فاتسلاف فورفسكي تم تعيين كريم حكيموف الذي كان قائداً في الجيش الأحمر سابقاً، وهو من قومية إسلامية في منصب القنصل العام في الحجاز،

وحسبما كتب غيورغي تشيشيرين إلى قسطنطين يورينيف أن كريم حيمكوف "قد تعود سياستنا لأنه تولى المناصب في روسيا سنوات عدة".

في يوليو ١٩٢٤م سافر كريم حكيموف إلى روما للاتصال بالممثلين الحجازيين. وأطلع الأمير حبيب لطف الله كريم حكيموف على الوضع في الحجاز، وأبلغه بأنه «طبقًا للاتفاق الذي تم بين العرب والإنجليز عام ١٩١٥ كان ينبغي تشكيل دولة عربية تشمل الجزيرة العربية بأسرها، وسورية وبلاد مابين النهرين ضمناً. وكانت المحصلة في آخر المطاف قيام دولة الحجاز التي اقتصرت على منطقة مكة والمدينة. وعلى هذا النحو خُدع العرب في تحقيق آمالهم. ورغم ذلك تحظى الحجاز الآن، - وفقاً لما قاله الأمير حبيب لطف الله- بأهمية بالغة، حيث تتوافد عليها قوى كبيرة من العالم الإسلامي من الهنود والفرس والأتراك. وحسب زعمهم يترأس الحسين دولة الحجاز، حيث يعتبر الزعيم الأيديولوجي للحركة العربية الواسعة النطاق. ويُقسم ممثلو العالم الإسلامي الملتفون حول الحسين إلى فريقين هما: الإسلاميون - أنصار توحيد المسلمين كافة، والقوميون - أنصار توحيد العرب كافة.

ولذا يخيم حول الحسين صراع عنيف بين الاتجاهات المختلفة، ويزداد هذا الظرف تفاقماً بسياسة الإنجليز الذين يرشون ذوي الطباع والمشارب المتباينة من شخصيات وموظفي الحسين. أن قسماً من هؤلاء الموظفين هم من سلك الموظفين الأتراك القدماء. والجدير بالذكر أن الأمير حبيب لطف الله نعت وزير الخارجية حسين فؤاد الخطيب بأنه جاسوس انجليزي" (٥)

أشار الأمير حبيب لطف الله على كريم حكيموف "أن يقدم نفسه إلى الحسين مؤمناً، بل مسلماً متنوراً. وينبغي عليه أن يقيم علاقة شخصية مع الحسين حتماً، وأن يتحاشي الوسطاء أياً كانوا وحتى وزير الخارجية، وألا "يتحدث إلا مع الحسين وحده" عن حركة القومية العربية (على مايبدو كان هذا الأمر أهم موضوع لدى الديبلوماسي الروسي فعلاً) وخاصة عند "قضاء فصل الصيف الحار في مدينة

الطائف التي تعد المقر الصيفي للملك وحيث لابد من إقامة العلاقات بين أسرتي وأسرة الحسين".

يستخلص كريم حكيموف من اجتماعاته الأولى النتائج التالية:

١- وجود كتلتين سياسيتين بين صفوف العرب الحجازيين وهما:

أ- فريق أنصار الخلافة الساعين جاهداً لنيل لقب الخليفة للحسين.

ب- فريق أنصار القومية العربية الساعين إلى إنشاء دولة عربية مستقلة.

٢- احتمال اختيار مدينة مكة "مقراً لي إذا ماتسنى في الموقف الرهن إقامة علاقات سوية مع الحسين" (٦).

في الثاني من أكتوبر ١٩٢٤م وصل الأمير حبيب لطف الله إلى موسكو.

وشهد الاستقبال الذي حظي به على جدية نوايا القيادة السوفيتية فيما يخص تطوير العلاقات مع الشريف الحجازي. واستقبل الأمير حبيب لطف الله من قبل رئيس اللجنة التنفيذية المركزية ميخائيل كالينين. ونزل الأمير في فندق "سافوي" الواقع في وسط موسكو. واستناداً إلى ما قوبل به الوفد الروسي من كرم الضيافة في الحجاز، لم يدفع الأمير حبيب لطف الله تكاليف إقامته في الفندق فحسب، بل وأجّل سداد حسابات ماتناوله في المطاعم أيضاً. واتخذ قرار يقضي بالتكفل بسداد تكاليف إقامة مبعوث الحجاز.

وفي الأحاديث التي تبادلها الأمير حبيب لطف الله مع الممثلين الرسميين في موسكو طرح أمامهم نظريته الخاصة بالمثلث السياسي. ومن رأيه أن السياسة العالمية يجب أن تهتدي بثلاث قواعد ارتكاز هي: موسكو وبكين وبغداد. وإذا ماتسنى توحيد هذه القواعد الثلاث فمن شأنه أن تغدو موسكو حصناً منيعاً في النضال ضد الإمبريالية العالمية.

إن التعاون بين روسيا والعرب، وفقاً لرأي سيرغي باستوخوف، كما صوره الأمير حبيب لطف الله "بأكثر الأشكال خيالية بما في ذلك إنشاء تنظيم دولة موحدة معنا أو دعمنا العسكري لجيش المتطوعين الذي يود الأمير حبيب لطف الله تشكيله

في القوقاز، وينوي بواسطته تحرير إما سورية أو بلاد مابين النهرين من نير الاستعمار" . أضف إلى ذلك محاولة الأمير حبيب لطف الله إقناع المحدثين السوفييت بأن يأخذوا حركة الخلافة بأيديهم واستخدام العامل الديني في السياسة السوفيتية في الشرق(٧).

أوضح سيرغي باستوخوف للأمير أن موسكو لم تستطع، بمقتضى مبادئها، استغلال العوامل الدينية في السياسية، وأن سياستها في الشرق "تقوم على التعاطف مع حركات التحرر الوطنية ودعم هذه الحركات بالوسائل التي في حوزتها لهذا الشأن" .

وكتب سيرغي باستوخوف "إننا نتطلع باهتمام إلى الوحدة القومية للعرب في الجزيرة العربية وإنشاء دولة عربية موحدة قوية" (٨).

ووافق ممثلو مفوضية الشعب للشؤون الخارجية رأي الأمير حبيب لطف الله أن "المناطق الأرفع حضارة والأبعد شمالاً مثل سورية وفلسطين" إنما هي المصدر الرئيس للحركة العربية وليست الحجاز.

في عام ١٩٢٤م أعلن الشريف حسين عن توليه الخلافة الإسلامية التي ألغيت في تركيا، وأرسل برقية خطية إلى تشيشرين لإبلاغ الحكومة الروسية السوفيتية بهذا القرار. ويرى الباحث السعودي فهد السماري أنه تبعاً لذلك أقامت موسكو علاقات ديبلوماسية مع الحجاز مستغلة سوء العلاقات وتدهورها بين الحجاز وانجلترا في هذه الفترة(٩).

ويرجع موقف الحسين، على مايبدو، إلى استيائه من الإنجليز وسعيه ليبدى للأنجليز أن في وسعه إيجاد حلفاء آخرين أيضًا قادرين على تهديد المصالح البريطانية.

وانطلاقاً من موقف الحسين السلبي من ثورة أكتوبر، فلا أظن أنه من الممكن أن نفترض أن الحسين كان يعمل بجد على إقامة تحالف مع موسكو ولامد طويل.

وانطلاقاً من نطاقات الحرب التي شنها ابن سعود ضد الشريف حسين أدرك

الديبلوماسيون السوفييت الوضع الهش للشريف حسين، وأخذوا آنذاك في إعمال الفكر لاتخاذ خطوات احتياطية. إلا أن سيرغي باستوخوف أخبر القنصل العام بضرورة الحفاظ على العلاقات الودية مع الأمير حبيب لطف الله، مذكراً أنه "وحتى وإنْ تلاشت دولة الحجاز من الوجود وتوقفت مهمة حبيب لطف الله فإنه قد يكون مفيداً لنا في الحجاز بوصفه شخصاً مرتبطاً بحركة القومية العربية" (١٠).

بالإضافة إلى ماسبق أصبح واضحاً للعيان أن الديبلوماسية السوفيتية كانت تخشى أن تجد نفسها في موقف نصير الطرف الفاشل، وأخذت تستعد لاحتمال التعامل مع الطرف الآخر أيضاً.

في صيف عام ١٩٢٤م تقدم ابن سعود في تحركه نحو الحجاز والذي قوبل بحماس من قبل جنوده من الإخوان. واضطر الشريف حسين المذكور بسبب ما أحرزه ابن سعود من انتصارات، إلى تسليم العرش لابنه علي في أكتوبر ١٩٢٤م، غير أن هذا الإجراء لم يوقف الحرب الدائرة بين الحجاز ونجد. والآن، حسبما يبدو من رسالة غيورغي تشيشيرين، اعتبرت موسكو حركة ابن سعود حركة معادية لبريطانيا تماماً، رغم أنها كانت تأمل منذ فترة ليست بعيدة في قدرة الحسين المعادية لبريطانيا، رغم أنها تناقض ماورد في الرسالة الموجهة من غيورغي تشيشيرين إلى كريم حكيموف في الأول من نوفمبر ١٩٢٤م: "إن هجوم ابن سعود على الحجاز قد افتعلته انجلترا التي أرادت عن طريقه إخضاع الحسين الذي بدأ يخرج عن الطاعة ويحاول الحصول من بريطانيا على تحقيق ماوعدت به عام ١٩١٥م، ونظراً لاستمرار الحركة المعادية للإنجليز في مصر، فإن آفاق تشكيل حكومة عربية في فلسطين، بالإضافة إلى تبعيتها للحجاز، أخذت تثير مخاوف انجلترا. وكان من شأن انهيار الصهونية في فلسطين - لو حدث - أن يؤدي في آخر المطاف إلى مد يد القوميين العرب في مصر وفلسطين لبعضهم البعض. وكان بإمكان هذا الجسر السياسي أن يضع انجلترا في وضع حرج للغاية" (١١).

يبدو من مراسلات هذه المرحلة أن العاملين في مفوضية الشعب للشؤون

الخارجية إما لم يدركوا جيداً مَنْ من السلاطين العرب بالذات أشمأز من الإنجليز، وإما أنهم لم يولوا اهتماماً بالغاً لدرجة معاداة بريطانيا من قبل الشركاء المحتملين، وأن الاستنتاج بشأن المشاعر المعادية للإنجليز لدى هذا السياسي أو ذاك كان ضرورياً أولاً وقبل كل شيء لإقناع الكرملين بإثبات الاتجاهات المرسومة على أساس التقديرات الذرائعية بقدر أكبر بكثير. علاوة على ذلك كان ديبلوماسيو الكرملين على يقين من أن انهيار نظام الاستعمار أمر محتم.

ولايمكن إلا أن نلمس غياب أي مفاهيم وعمليات تنسيق أيديولوجية في مراسلات غيورغي تشيشيرين التي تهدف إلى إشعال نيران الثورة في فلسطين ومصر، وعكف الكومنتيرون بجد وهمة على تحقيقه. وفي تلك السنوات أرسيت مبادئ للسياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي التي تلاصقت في إطارها المهام الذرائعية للدولة بالمطالب الأيديولوجية البحتة للحركة البلشفية. وكان من الواضح أن القيادة السوفيتية لم تقع في أوهام بصدد احتمال اندلاع الثورة في جزيرة العرب، ولكنها كانت تدرك جيداً فائدة النهج الرامي إلى دعم حركة التكامل العربية القادرة على تقويض دعائم سيطرة انجلترا في الشرق الأوسط.

وكان الوقوف في مواجهة انجلترا أحد العوامل الحاسمة الرئيسة لنهج السياسة الخارجية التي مارسته موسكو في جزيرة العرب.

وكانت الذرائعية صفة مميزة بوجه خاص لموقف غيورغي تشيشرين من الأمور إلا أنه لم يكن متحرراً أيضاً من التصورات الرومانسية عن قدرة التكامل الإسلامي. ويكتب قائلاً: "إن مصالحنا في القضية العربية تقضي بتوحيد الأراضي العربية في كل واحد." ويتحدث غيورغي تشيشيرين أيضاً عن إمكانية التقارب التركي - السعودي" في حركة إسلامية مزعومة موجهة ضد الإمبريالية الغربية". ويستخلص مفوض الشعب للشؤون الخارجية أن "على هذا النحو نجد أن التوازن الموقت الذي أنشأته انجلترا في شبه الجزيرة العربية قد تضعضع. وعلى مايبدو أن فكرة القومية العربية أخذت تنبعث في وسط نجد.

ويشكل هذا الأمر للانجليز مصاعب جديدة تزداد تعقيداً بسبب عدم تسوية قضية الموصل أيضاً، إن مثل هذا الوضع يتفق ليس فقط ومصالحنا بل والمصالح التركية أيضا. إن سياستنا في جزيرة العرب يجب أن تقوم - كما هو الحال دائماً - على العامل القومي وطموح العرب للاتحاد في دولة موحدة" (١٢).

وانطلاقاً من نزعة الحركة الإسلامية السعودية المعادية لانجلترا والاستعمار - حسب زعمهم - تقبل الكومنتيرن أيضاً بحماسة ما حققه ابن سعود من انتصارات عسكرية. وبحثت اللجنة التنفيذية للكومنتيرن في إحدى جلساتها عام ١٩٢٤م الوضع القائم في جزيرة العرب. ووصف المشاركون في الجلسة الملك عبدالعزيز بأنه زعيم حركة قومية كبرى. وإن انتصاره في نجد سيتيح إمكانية حث المسلمين على خوض النضال الثوري ضد الإستعمار الإنجليزي. وساند الكومنتيرن الملك عبدالعزيز والإمام يحيى ووصفهما بأنهما زعيمان يعملان جاهداً على مقاومة النفوذ الإنجليزي ويجب إسداء المساعدة لهما" (١٣).

في سبتمبر عام ١٩٢٤م استولى الإخوان والجيش النظامي لعبدالعزيز بن سعود على الطائف وبعد ذلك دخلوا مكة المكرمة.

وتحوطاً للعلاقات السوفيتية - الحجازية المزمع إقامتها سعت قيادة مفوضية الشعب للشؤون الخارجية ليس فقط إلى إقامة اتصالات مع ابن سعود وضمان تأييده لها في حالة استيلائه على الحجاز، بل وأيضاً التمسك بالحياد والقيام بمهمة الوساطة في مرحلة محددة. وفضلاً عن ذلك تأمين "علاقة ربط" بين روسيا والحجاز من خلال الإعلان عن الحرص على حماية مصالح المواطنين (السوفييت) الروس المقيمين في الحجاز والوافدين إليها في أيام الحج على حد سواء. ورغم مكائد الممثلين الانجليز الذين أثاروا مخاوف السلطات المحلية من أن الممثلين الروس سيقومون بأعمال تخريبية هدامة في الحجاز عن طريق تسجيل مواطنيهم فيها، إلا أنهم أفلحوا في إجراء التسجيل.

ويورد كريم حكيموف في الرسالة التي بعث بها إلى تشيشيرين في الخامس من

نوفمبر ١٩٢٤ م تقييماً سلبياً للغاية لنتائج حكم الحسين في جزيرة العرب. ويجدر التنويه إلى أن كاتب الخطاب ينطلق من أن مهمة بلورة "حركة الوحدة العربية" تعد بالنسبة للديبلوماسيين السوفييت أكثر الأولويات أهمية: "

إن الفقر الموقع للبلاد التي لاتستطيع أن توعد بشيء في المستقبل أيضاً، والتخلف السياسي والثقافي فيها، رغم وجود المدن المقدسة وحراسها من سلالة النبي (ﷺ) لايكفي لكي تتمكن الحجاز من ترأس حركة الوحدة العربية بنجاح". واستناداً إلى هذا التقييم يستخلص القنصل العام نتيجة تثبط العزم مفادها: "يبدو لي مما سبق أن تكتيكنا الأساسي - حركة الوحدة العربية باعتبارها المهمة التي ترتبط بها إقامتنا في الحجاز - بدأ يفقد أهميته أو سيفقدها مستقبلاً".

"أصبح الشريف حسين في مكان لايحسد عليه لحد ما، ويمكن أن "نستفيد منه أو يستفيد منه أي شخص آخر في موقف واحد وفي ظل ظرف واحد حتماً. أو يمكن الاستفادة منه لإثارة نزاع معاد للانجليز والإيطاليين أو حتى بتسيير حملة ضد عسير الواقعة تحت حماية انجلترا وذلك بدفع ثمن أتعابه... من أجل تحقيق نتائج مؤقتة ورخيصة، خاصة في ظل ظروف عدم إيلاء أي اهتمام لوضعه الداخلي.. على أن لايربط ذاك الأمر وغيره بسياستنا الأساسية في الجزيرة العربية" (١٤).

وأغلب الظن أن القنصل العام مازال غير متأكد من أن بإمكان ابن سعود أن ينتصر على الحسين.

وبعد أن اقتنع غيورغي تشيشيرين بأن لابن سعود إمكانات كبيرة للانتصار، كلف كريم حكيموف بإقامة اتصال معه. ويكتب كريم حكيموف في رسالة مؤرخة في الرابع من نوفمبر ١٩٢٤: "أن هذه المسألة قد برزت أمامي في الأيام التي استولى فيها السعوديون لتوهم على الطائف، وحينما لم يكن معلوماً ما إذا كانت لديهم نواياً جادة لمواصلة التقدم وما إذا كانت في حوزتهم موارد كافية. وكنت أظن أن مسألة علاقاتنا معهم يمكن أن تبرز بغض النظر عن انتصارهم أو هزيمتهم...".

ولم يكن من الممكن إقامة اتصال في تلك الظروف إلاّ كتابياً، ولم يتسن إقامة

صلات على الفور، ويخبر القنصل العام بما يلي: " . . لم أفلح في إرسال خطاب إلى خالد بن لؤي قائد القوات السعودية، أرفق نسخة لكم، إلاّ بعد استيلائه على مكة" (١٥).

في مطلع عام ١٩٢٥ م ضرب السعوديون الحصار على مدينة جدة، واستمر الحصار نحو عام تقريباً. أرسل غيورغي تشيشيرين تعليمات إلى كريم حكيموف تفيد بأن "الأحداث الجارية في الجزيرة العربية تلج مرحلة مهمة جداً. وينبغي عليكم البقاء في جدة مهما كلف الأمر، ولابد من إقامة علاقات ودية مع ابن سعود، ويجب أيضاً تتبع سبل تطور التناحر الانجلو - فرنسي والانجلو- إيطالي في الجزيرة العربية" (١٦).

واصل كريم حكيموف تطوير الاتصالات بالسعوديين. وفي الخطاب الذي بعث به غيورغي تشيشيرين إلى كريم حكيموف في ١٨ يونيو ١٩٢٥م، قدّر ايجابياً العلاقات القائمة بين القنصل العام وابن سعود. وتضم هذه التعليمات مقولة مهمة حول توسيع نطاق علاقات الديبلوماسيين السوفييت في جزيرة العرب. وكتب مفوض الشعب للشؤون الخارجية: "حيث إننا لانعول على هذا أو غيره من الأمراء العرب المتخاصمين، بل نسعى فقط من خلال المراكز القائمة للحياة العربية إلى تطوير علاقاتنا معها، لذا فمن الضروري أن يكون لنا اتصال متواز جار في آن واحد مع الحجاز ونجد على السواء. ويعتبر غيورغي تشيشيرين الاتصالَ مع لجنة الخلافة أيضاً أمراً مهمًا لابسبب أن موسكو تفضل فكرة الخلافة، بل لأن حركة الخلافة تلعب دوراً مهمًا "في نضال الشعوب الإسلامية من أجل التحرير التام". ويقول أيضاً: "لو كان أحد الأمراء المسلمين قوياً بقدر كاف لكي يضطلع بدور الجامع لجزيرة العرب، لاعتبرنا نحن، بالطبع، توحيد كافة القبائل العربية في دولة واحدة خطوة كبيرة إلى الأمام. ولكن ليس هناك من يضطلع بهذا الدور ولايمكننا إلا أن نتخذ موقفاً سلبياً لأقصى حد من الحزازات غير المتناهية بين الأمراء العرب التي تساندها انجلترا(١٧).

وانطلاقاً من هذه التفسيرات أيد غيورغي تشيشيرين رأي حكيموف بشأن المشاركة في تحقيق المصالحة بين الأطراف المتخاصمة، ولكن فقط في حالة اتخاذ الملك علي لموقف ملائم من هذه المصالحة.

ويعطي غيورغي تشيشيرين التعليمات لكريم حكيموف بأن يكون حذراً في إبداء آرائه بشأن انجلترا أثناء تبادل الحديث مع ابن سعود، طالما يفترض أنه قد يكون صنيعة انجلترا: "في الواقع، لايمكن الآن أن نقدر مسبقاً أي تفاصيل محددة لهذه المباحثات، لأن الملابسات الملموسة للمباحثات المذكورة ليست معروفة لنا. ولكن يمكن القول إجمالاً أنه ينبغي من ناحية أن نؤكد بكل السبل على صداقتنا العامة مع شعوب الشرق، ومبدأ تقرير المصير للشعوب الكامن في أساس سياستنا، ومن ناحية أخرى يجب إلتزام أقصى قدر من الحذر فيما يتعلق بانجلترا. ولاينبغي إعطاء ذريعة لتوجيه أي انذار نهائي انجليزي جديد. إن ابن سعود يتقاضي المساعدات من انجلترا وإذا كان اليوم يتخاصم معها فلاضمان ألاّ يتصالح معها غداً، وألا يتحول إلى صديق للإنجليز، ولايمكن السماح بإبداء الصراحة المفرطة في مثل هذ الظروف. ويمكن التكلم على أعم وجه عن أن عطفنا على الأمم المقررة لمصيرها، والمناضلة من أجل الاستقلال، يعني أننا ضد أي غزوات واعتداءات وفتوحات واضطهاد الشعوب من جانب الدول العظمى. ولكن لاينبغي جعل هذه الأحاديث أكثر حدة ضد انجلترا لكي لانشهد فضيحة ومشادة ديبلوماسية، وينبغي توضيح مقولة علاقتنا الودية مع شعوب الشرق بالحديث عن صداقتنا مع تركيا وايران وأفغانستان وما إلى ذلك، ولكن يجب أن نتعامل في هذا الحال مع انجلترا بأقصى قدر من الحيطة والحذر. إن أي سعي للشعوب الشرقية إلى الاستقلال يمكن أن يعتمد على عطفنا. أننا إذ ندخل في العلاقات مع الحجاز، نرغب في إقامة الاتصالات مع شعوب شبه الجزيرة العربية والحفاظ على هذه الاتصالات مستقبلاً أيضاً. إن ما حققه ابن سعود من انتصارات عسكرية لا يعني إنه قد أحرز الاستقلال فعلاً - كلا، لأن أمامه صراعاً مريراً ضد الدول التي تود ألاّ ترى جزيرة العرب دولة

مستقلة قوية توحد العرب في النضال ضد المطامع الأجنبية، بل مستعمرة أوربية أو عديداً من الإمارات الصغيرة التي تعادي بعضها البعض(١٨).

إن تعليمات مفوض الشعب للشؤون الخارجية لن تدع الشك لدى القنصل العام في أي اتجاه ينبغي عليه أن ينهض بمهامه. وكتب غيورغي تشيشيرين إلى كريم حكيموف "ينبغي الأخذ في الاعتبار أن العدو الرئيس للعرب في الماضي - تركيا العثمانية - لم يكتب له البقاء. أما الآن فإن انجلترا هي العدو الرئيس للعرب"(١٩).

والآن حاول القنصل السوفيتي في جدة أن يقوم بدور المصالح بين الطرفين المتخاصمين، الأمر الذي كان على الأرجح يهدف أولاً وقبل كل شيء إلى رفع سمعة بلاده وسمعته شخصياً وتحسين مستوى الاتصالات مع كل طرف وإبداء الحياد. وكان بامكان هذا الدور أن يحقق الفوائد مهما كانت نتيجة الصراع. ومن المشكوك فيه أن الديبلوماسيين السوفييت كانوا يفكرون بجد أن في استطاعتهم تحقيق المصالحة بين ابن سعود والأشراف. وحسب ما ورد في معطيات الباحث السعودي السماري فإن كريم حكيموف اتصل شخصياً بالملك عبدالعزيز وطلب منه السماح له ولقناصل عدد من الدول الإسلامية المعتمدين في جدة بزيارة مكة المكرمة وأداء العمرة دون التدخل في شؤون الطرفين المتخاصمين السياسية.

في شهر رمضان من عام ١٣٤٣هـ (في أبريل ١٩٢٥م، لم يرسل التقرير عن الجولة إلى موسكو إلا في ١٧ يونيو ١٩٢٥) أدى كريم حكيموف مع وكيل القنصل الهولندي ووكيل القنصل الإيراني العمرة أثناء الحصار المضروب على جدة. وأتاح هذا له إمكانية الاطلاع على الوضع العسكري خارج أسوار مدينة جدة. والتقى كريم حكيموف الملك عبدالعزيز واتفق معه على أنه سيسمح لفؤاد الخطيب وزير خارجة الحجاز بالقدوم إلى مكة وإجراء المباحثات مع الملك عبدالعزيز(٢٠). وفي ٢٦ رمضان أرسل فؤاد الخطيب رسالة إلى الملك عبدالعزيز يطلب فيها أن يسمح له بالقدوم. ونتيجة لمهمة الوساطة التي قام بها حكيموف بين الملك عبدالعزيز وفؤاد

الخطيب بدأت المراسلات بينهما التي انتهت إلى اللقاء بين الطرفين في آخر يوم من شهر رمضان(٢١).

وأثناء الأحاديث التي أجراها كريم حكيموف في مكة استغل بمهارة بالغة اهتمام الملك عبدالعزيز بزيارة المسلمين السوفييت لمقدسات الإسلام وحج البيت الحرام. وجاهر القنصل العام - بوجه خاص - لابن سعود بأنه "لايمكن تحقيق مشاركة مسلمينا الجماهيرية والمنظمة إلا في حالة إقامة علاقات بين الاتحاد السوفيتي ونجد من شأنها تمكين الموظفين الرسميين السوفييت من أداء الوظائف المتعلقة بحماية مصالح مواطنينا"(٢٢).

ووفقاً لما يذكره السماري، أرسل كريم حكيموف بعد مانشر عن وساطته في صحيفة "أم القرى" رسالة إلى الملك عبدالعزيز يطلب منه تكذيب هذا الخبر.

وأعرب الملك في رسالة جوابية عن استغرابه بصدد مطلب كريم حكيموف، وأكد على صحة الخبر المنشور وعدم تكذيبه، قائلاً: "ماكنت أظن أن معتمدي حكومات يتكلمون بكلام ثم ينكرونه، مع أنني ماأرى فيه من بأس ولا طلبت مني كتمان ذلك وأفشيته"(٢٣).

وحسبما يعتقد فهد السماري فإن كريم حكيموف احترس من أن النبأ سيثير رد فعل وخيم من جانب الممثلين الأجانب في الحجاز الذين اتفقوا على التزام الحياد تجاه النزاع بين الطرفين. وفي الواقع قام جوردان الممثل البريطاني في جدة بإبلاغ تشيمبرلين وزير الخارجية البريطاني في ٢٩ ديسمبر عام ١٩٢٥م بأن كريم حكيموف وعد الملك عبدالعزيز أثناء اتصالاته معه بتقديم مساعدة روسية له مقابل الاختلاف مع الإنجليز(٢٤). إن السماري على يقين من أنه ليس هناك مايدل على صحة هذه المزاعم. خاصة والملك لم يكن يحتاج إلى مساعدة، لأن مدينة جدة كانت على وشك السقوط بين ليلة وضحاها. ولا توجد مثل هذه المعلومات في المحفوظات الروسية أيضاً.

وتجدر الإشارة إلى أن أسس معالجة الأوضاع المثيرة للنزاع في البلدان المعنية قد

أرسيت في الديبلوماسية السوفيتية فعلاً في ذلك الوقت، وتبلور الخط الرامي إلى تحويل المجرى المألوف في العلاقات مع الطرفين المتخاصمين والوساطة السرية، الذي تطور فيما بعد واستمر تطبيقه في نشاطات السياسة الخارجية للإتحاد السوفيتي في المنطقة المذكورة.

بحلول خريف عام ١٩٢٥م بدأ انتصار السعوديين النهائي أمراً محتماً لا مفر منه. وأخذ الديبلوماسيون السوفييت يبحثون عن سبل مواصلة تعزيز العلاقات مع ابن سعود. (٢٥)

وقرر تشيشيرين مساعدة ابن سعود بغية إظهار موقف موسكو الودي منه فبعث برسالة إلى السفير السوفيتي في طهران جاء فيها: "إن الحملة التي تقودها انجلترا الآن في البلدان الإسلامية ضد السعوديين من جراء أعمال التخريب والدمار التي قاموا بها - حسب زعمها - هي إحدى وسائل الضغط على ابن سعود. وسعياً إلى عزل ابن سعود عن أي دعم له في الهند ومصر والأراضي الواقعة تحت الانتداب، يؤجج العملاء الإنجليز سعير التعصب بين الجماهير الإسلامية ضد السعوديين بهدف إضعاف ابن سعود وإرغامه على الاتفاق مع الحجاز على أساس المقترحات الإنجليزية أيضاً" (٢٦).

في ديسمبر عام ١٩٢٥م سقطت جدة وتم تنصيب ابن سعود ملكاً للحجاز وسلطان نجد وملحقاتها. وفي ١٦ فبراير ١٩٢٦م أرسل كريم حكيموف إلى الملك رسالة تضمنت الاعتراف التام بالدولة السعودية: "بالنيابة عن حكومتي أتشرف أن أبلغ جلالتكم بأن حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، انطلاقاً من مبدأ تقرير المصير للشعوب واحترامها الفائق لإرادة الشعب الحجازي التي تجلت في مبايعته لجلالتكم ملكاً له، تعترف بجلالتكم ملكاً للحجاز وسلطان نجد وملحقاتها. ووفقاً لذلك تعد نفسها في حالة علاقات ديبلوماسية عادية مع حكومة جلالتكم(٢٧).

وهكذا نرى أن المملكة العربية السعودية مستقبلاً أصبحت أول دولة عربية أقام

الاتحاد السوفيتي العلاقات معها.

ووفقاً لما تظهره الوثائق من المحفوظات الدبلوماسية الروسية فإن السياسة الذرائعية (البراجماتية) التي مارسها الاتحاد السوفيتي في الجزيرة العربية تباينت مع موقف القيادة البلشفية المتسم بصبغة أيديولوجية مثالية بقدر أكبر بكثير تجاه مصر وفلسطين وكذلك تجاه بلدان المشرق الأخرى، حيث تصور قادة حزب البلاشفة أن هناك احتمالاً لإرساء قاعدة لحركة الثورة البروليتارية ولذا اتخذوا اتجاهاً نحو إنشاء أحزاب شيوعية في هذه البلدان.

سبق لنا القول أنه لم يلاحظ "خط الكومنتيرين" في الجزيرة العربية عملياً، الأمر الذي كان متعلقاً لا بعدم استعداد مجتمع الجزيرة العربية لظهور هذه الحركة وتأييد فكرتها فحسب، بل وأيضاً لأن القدرة التحررية المناهضة للإنجليز في حركات أمراء جزيرة العرب كانت أمراً أهم بالنسبة لروسيا السوفيتية. إن التناقض بين الاتجاه الذرائعي نحو مصالح الدولة أثناء تطبيق نهج السياسة الخارجية والموقف المبرر فكرياً قد احتفظ به على مدى بقاء الاتحاد السوفيتي تقريباً، وانعكس فيما بعد حتى في الهياكل النظرية، مثل نظريات الثورة الديمقراطية الوطنية أو التنمية اللارأسمالية التي أتاحت إمكانية تجاهل عامل الشيوعيين المحليين، أو إخضاعه للتأييد الذرائعي البحت "للديمقراطيين الوطنيين" ذوي الميول المناهضة للشيوعية أيضاً في أحيان كثيرة، ولكن مقابل هذا هبوا للنضال ضد الغرب.

كانت في العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية بعد هذه المرحلة صفحات عديدة، صفحات ارتقاء وتدوهر، إلا أن مصادر ماشهدته الدبلوماسية السوفيتية من نجاحات وهزائم في الجزيرة العربية، رغم أنها غير مستديمة، كانت تكمن في مرحلة أول انطلاقة لموسكو إلى الجزيرة العربية.

## المراجع:


١- تشيشيرين - إلى ستالين، ١٨ ديسمبر ١٩٢٣، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ١٢٧، قائمة الموجودات ١، الاضبارة ١، الدوسية ٢، الأوراق ٦-٧.

٢- تشيشيرين إلى بورنييف، ٤ أبريل ١٩٢٤، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ١٢٧، قائمة الموجودات ١، الإضبارة ١، الدوسية ٥، الورقة٦.

٣- نفس المرجع، الورقة ٧.

٤- حكيموف - إلى تشيشيرين، ١٥ يوليو ١٩٢٤، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ٠١٢٧، قائمة الموجودات ١، الإضبارة١، الدوسية ٥، الورقة ٢.

٥- نفس المرجع، الورقة ٣٧.

٦- باستوخوف - إلى حكيموف، ١ نوفمبر ١٩٢٤م، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ٠١٢٧، قائمة الموجودات ١، الإضبارة ١، الدوسية ٥، الورقة ٣٧.

٧- د. فهد بن عبدالله السماري. العلاقات السعودية - الروسية في عهد الملك عبدالعزيز، مخطوطة، ص ٣٢.

٨- باستخوف - إلى حكيموف، ١ نوفمبر ١٩٢٤، الورقة ٣٨.

٩- تشيشيرين - إلى حكيموف، ١ نوفمبر ١٩٢٤، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ٠١٢٧، قائمة الموجودات ١، الاضبارة ١، الدوسية ٥، الورقة ٣١.

١٠- نفس المرجع.

١١- D. Boersner. The Bolsheviks and the National and Colonial Question 1917- 1928. paris, 1975, p.190.

١٢- حكيموف - إلى تشيشيرين، ٥ نوفمبر ١٩٢٤، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ٠١٢٧، قائمة الموجودات ١، الاضبارة ١، الدوسية ٥، الأوراق ٢٨-٢٩

١٣- حكيموف - إلى تشيشيرين، ٤ نوفمبر ١٩٢٤، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ٠١٢٧، قائمة الموجودات ١، الإضبارة ١، الدوسية ٥، ٢٠

١٤- تشيشيرين إلى حكيموف، ٢٢ يناير ١٩٢٥، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ٠١٢٧، قائمة الموجودات ١، الإضبارة ٢، الدوسية ١٤، الورقة ٦

١٥- تشيشيرين إلى حكيموف ١٨ يونيو ١٩٢٥، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ٠١٢٧، قائمة الموجودات ١، الإضبارة ٢، الدوسية ١٤، الورقة ٤٩.

١٦- نفس المرجع.

١٧- تشيشيرين إلى حكيموف، ٢٧ مارس ١٩٢٥، محفوظات السياسية الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ٠١٢٧، قائمة الموجودات ١، الإضبارة ٢، الدوسية ١٤، الأوراق ٣٥-٣٦,

١٨- تشيشيرين إلى حكيموف، محفوظات السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الرصيد رقم ٠١٢٧، قائمة الموجودات ١، الإضبارة ٢، الدوسية ١٤، الورقة ٣٠.

١٩- السماري، نفس المرجع، ص, ٣٦

٢٠- صحيفة "أم القرى"، مكة، ١٥ شوال ١٣٤٣هـ، العدد ٢٠، ص ١-٤,

٢١- مذكرة حكيموف إلى مفوضية الشعب للشؤون الخارجية بشأن الرحلة إلى مكة، ١٧ يونيو ١٩٢٥، محفوظات السياسة الخارجية بدون قائمة الموجودات، الورقة ٤٨,

٢٢- صحيفة "أم القرى" مكة، ١٣ من ذي القعدة ١٣٤٣هـ، العدد ٢٤، ص٤، ٣١.

٢٣- السماري، نفس المرجع السابق، ص ٣٧.

٢٤- Jordan to Chamberlain, 29 December 1925. F.O. 371/11437-E364- 180-91.

٢٥- G.L. Bondarevsky. Russia and the Gulf in the Twentieth Century. "The Politics of Oil". ed. Paul Tempest. London: Graham and Trotman, 1993. P. 90.

٢٦- وثائق السياسية الخارجية للاتحاد السوفيتي. المجلد٨، موسكو، ١٩٦٣، ص ٥٤٨,

٢٧- الاتحاد السوفيتي والبلدان العربية. ١٩١٧- ١٩٦٠، موسكو ١٩٦١، ص ٦١,